

التراث التفسيري من منظور الحداثيين

Interpretive legacy from the modernists' perspective

د. عبد الحليم دبدوبي*

Dabdibi abdelhalim

جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان - الجزائر

مخبر المرجعيات الفلسفية والفنية للتفكير البلاغي والنقدي في الجزائر

Abu Bakr Belkaid University, Tlemcen - Algeria

البريد الإلكتروني: halimtafsir13@gmail.com

هاتف: 0668835918

تاريخ النشر: 2021/04/30	تاريخ القبول: 2021/04/18	تاريخ الإرسال: 2021/03/19
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

تهدف الدراسة إلى التعرف على آراء الحداثيين من التراث التفسيري، والوقوف على حقيقة نظرهم إلى علم التفسير وموقفهم من أصول هذا العلم وقواعده ومناهجه، فمسألة التراث من المسائل التي تطرقت إليها وطرحتها وناقشتها القراءات الحداثية الداعية إلى تجديد الخطاب الديني وعصرنته. إنَّ التجديد الذي يراه الحداثيون ويسعون جاهدين إلى تحقيقه في الفكر العربي المعاصر يكون بقطع الصلة مع التراث التفسيري وتجاوزه.

كما تعرضنا من خلال الدراسة إلى بيان مفهوم الحداثة، ومفهوم التراث، وتطرقنا إلى الدواعي والمبررات التي تُعتبر أسباباً قوية في الفكر الحداثي برّروا من خلالها موقفهم الداعي إلى تجاوز التراث وتمهيشه والقطيعة معه، وحاولنا أخيراً أن نقدّم نقداً ومناقشة لمواقف التيار الحداثي من التراث التفسيري.

الكلمات المفتاحية: تراث - تفسير - قرآن - حداثة - تجديد.

Abstract: The study aims to identify the views of modernists from the interpretive heritage, and to stand on the truth of their view of the science of interpretation and their position on the origins, rules and methods of this science. The innovation that modernists see and strive to achieve in contemporary Arab thought is by severing the link with the interpretive heritage and transcending it. We also presented through the study an

* عبد الحليم دبدوبي: Halimtafsir13@gmail.com

explanation of the concept of modernity and the concept of heritage, and we touched upon the reasons and justifications that are strong reasons in modernist thought through which they justify their position calling for the transcendence of heritage and its marginalization and estrangement with it.

Key words: heritage - interpretation - Quranic text - modernity - innovation.



مقدمة

شكّلت قضية التراث في العصر الراهن قضية محورية في الدراسات الفكرية والاجتماعية والاسلامية، وأثارت الكثير من الجدل والنقاش، وفي مقابل هذا المصطلح نجد مصطلح الحداثة والذي يحمل في طياته دلالات ومفاهيم تختلف عن دلالة التراث، فالحداثة أو المعاصرة تختلف جذريا عن التراث أو الموروث. هذا وقد أنشأت الحداثة حراكا رافضا لكل ما هو قائم من القواعد والأصول والمناهج، وأحدثت ردّة عن كل ما هو موروث من الأفكار والمعتقدات والرؤى والمواقف. ويعتبر الموروث التفسيري أو ما يمكن تسميته بالقراءة التراثية التفسيرية للقرآن الكريم من أبرز ما اتجهت إليه القراءة الحداثيّة وناقشته وقدمت حياله الكثير من المواقف، والتي يمكن تلخيصها في أنها كانت مواقف سلبية وإقصائية، حيث دعت الحداثة إلى القطيعة المعرفية مع المنجزات التراثية، بالرغم مما احتواه الموروث التفسيري من قيمة علمية هائلة ومناهج تحليلية منضبطة وأدوات فهم صحيحة.

نعالج من خلال هذه الدراسة قضية من القضايا المحورية التي أثارت وتثير إشكالات كثيرة، ألا وهي مواقف الحداثيين ونظرتهم للتراث التفسيري. محاولين أن نجيب عن الإشكالية التالية: ما مفهوم الحداثة؟ وكيف ينظر التيار الحداثي للموروث التفسيري؟ وما حقيقة موقفهم منه؟ وما الدواعي التي برّر بها الحداثيون موقفهم من الموروث؟ وهل تأسيس قراءات قرآنية معاصرة وجديدة تستدعي لزوما تجاوز والغاء القراءات القرآنية الموروثة؟ هذه جملة من الأسئلة نحاول أن نجيب عنها من خلال هذه الدراسة والتي جاءت تحمل عنوان: "التراث التفسيري من منظور الحداثيين".

أولاً: الحداثة والحداثيون - وقفة مع المفهوم -

1-1: مفهوم الحداثة

تدلُّ الحداثة على الجديد والمغاير للسائد والقديم، وتدلُّ على التحول عن كل ما هو قديم وتقليدي إلى ما هو جديد وعصري. إنَّها منهجٌ فكريٌّ معاصر يتبنَّى نزعة تحررية تصرُّ على قطع الصلة بكلِّ ما هو موروث في جوانب الحياة الإنسانية المختلفة فكرياً وفنياً وأدبياً ودينياً وغير ذلك، كما يمكننا وصفها بأنها هدمٌ للأسس والثوابت وخروج عن المعهود والبنى التقليدية بُغية تأسيس فكر إنسانيٍّ معاصر، إنَّها (تعني تماماً كل هذه الأفكار السابقة، فهي تتناقض بكل تأكيد مع قيم الماضي بكل أشكالها دينية كانت أو ثقافية أو فنية أو اجتماعية)¹. إنها تعني ضرورة التمييز والاختلاف عن القديم بكل أسسه، والتنكُّر للتوابت والمعارف والمناهج السابقة، إنَّها انفصال وقطيعة وتجاوز للماضي وحراك ثقافي على القديم.

عرَّفها بعضهم بأنَّها (منهجٌ فكريٌّ أدبي علماني، مبني على عدة عقائد غربية ومذاهب فلسفية، يقوم على الثورة على الموروث ونقده وتفسيره بحسب وجهة نظر القارئ)².

1-2: مصطلح الحداثيين

الحداثيون الذين نتعرَّضُ إلى دراسة مواقفهم من الموروث التفسيري هم المفكِّرون العرب المنتمون إلى البيئة الإسلامية نشأةً وميلاداً المرتبطون بالبيئة الغربية فكراً وقناعة، درسوا أكاديمياً وفق النمط الفكري الغربي وتأثَّروا بالحداثة الغربية، فنقلوا الآليات والمناهج والمقولات الاستشراقية والحداثية وحاولوا تطبيقها في الواقع الإسلامي، داعين إلى قطع الصلة بالماضي والموروث العربي الإسلامي. (الحداثيون هم طائفةٌ من الكتَّاب، درسوا أفكار بعض الفلاسفة الغربيين الذين لم يكونوا على وفاق مع الإسلام، وتعلموا على يد بعض الفلاسفة العرب والمستشرقين من الذين حاولوا تصحيح بعض الأفكار المتعلقة بمبادئ الإسلام)³.

ثانياً - مفهوم التراث التفسيري

1-2: دلالة التفسير

اجتمعت كلمة علماء اللغة والتفسير على أنَّ مصطلح التفسير يدلُّ على "البيان والكشف والإيضاح وإزالة الإبهام"، يقول ابن جزِّي: (التفسير: شرح القرآن، وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصّه أو إشارته أو نحوه)⁴.

وعرفه الكافيجي قائلا: (وأما التفسير في العرف، فهو كشف معاني القرآن، وبيان المراد)⁵.

2-2: ماهية تراث علم التفسير

عُرف التراث بأنه (ما خلفه السلف للخلف من علوم وعادات وطرق للتفكير)⁶. وعُرف المفكر الحدائي حسن حنفي التراث قائلا: (والتراث هو مجموعات من العلوم، كعلم الكلام، وأصول الفقه، وعلوم القرآن، والحديث، وعلم التفسير)⁷.

يمكن وصف تراث علم التفسير أو الموروث التفسيري بأنه مجموع ما خلفه المتقدمون من مدونات تفسيرية وآراء وأقوال نُقلت إلى المتأخرين، وهو كل ما احتواه علم التفسير من أصول وقواعده وآليات وُظفت في النشاط التفسيري، كما تشمل عبارة -التراث التفسيري- كل ما له علاقة بتفسير القرآن الكريم من مدونات ورسائل علمية ككتب علوم القرآن وأصول الفقه، كما يدل على كل ما عرفه تاريخ التفسير من طرائق ومناهج واتجاهات.

ومن أبرز التفاسير القرآنية التي برعت في علم التفسير، واحتوت على كثير من المأثورات والمنقولات، ومثلت بحق التراث التفسيري؛ تفسير محمد بن جرير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير القرطبي، وتفسير الزمخشري، وتفسير ابن عطية الأندلسي، وتفسير ابن العربي، وتفسير السيوطي وغيرهم.

ثالثا: حقيقة الموقف الحدائي من تراث علم التفسير

لم يكن تراث علم التفسير بمنأى عن أنظار الحدائين في مشروعهم النقدي التجديدي، وللتعرف على حقيقة الموقف الحدائي من التراث، فإنه يتوجب علينا الرجوع إلى كتاباتهم وتلمس حقيقة موقفهم منه ونظرتهم إليه. تكفي هذه العبارة للمفكر الحدائي علي حرب: (لا عبء بكلام مفسري القرآن التقليديين)⁸، للتعرف على موقف الحدائين من الموروث التفسيري كله من بداياته الأولى إلى الآن، فقد لحّضت تلك العبارة الموقف الحدائي، فلا اعتبار ولا قيمة للموروث التفسيري في المدرسة الحدائية.

أقام الحدائيون قطيعة معرفية مع التفاسير التراثية سواء ما كان منها تأسيسيا قديما أو ما كان تجديديا معاصرا، لأنها في نظرهم تفاسير تقوم على الإيمان والاعتقاد، وهو ما لا يوافقون عليه، فهم يسعون إلى تأسيس تفاسير انتقادية لا اعتقادية⁹، ويعملون جاهدين إلى التخلص من المناهج التفسيرية القديمة، (فهم لا يتعايشون مع المناهج التراثية التي اشتغل بها القدماء، لأنّ العقلانية

حادثة، والحادثة لا مكان فيها ولا معها للماضوية التراثية المحلية، إنما يمكن أن تتعايش مع ماضي التراث الغربي، وتستقي منه رؤيته للكون والوجود¹⁰.

وبالرغم من (أن رموز القراءة الحداثيّة للتراث ليس فيهم واحدٌ متخصّصٌ في قراءة وتحقيق النصوص التراثية، أو الانكباب على دراستها منهجياً)¹¹. إلا أنهم يؤكّدون أننا (في حاجة أكيدة إلى إعادة قراءة نصوصنا المؤسّسة والنصوص الحافة بها قراءة نقدية)¹².

وعلى الرغم من اختلاف نظرات الحداثيين إلى التراث الإسلامي ككل ومنه الموروث التفسيري وتباين مواقفهم منه، إلا أنهم متفقون على ضرورة تهميشه، وإقصائه، واختراقه، وإلغاءه، ويمكننا وصف التيار الحداثي بالتيار اللاتراثي، لعدم قبوله فكرة بقاء التراث، وهو متقاطعٌ مع مبدأ المحافظة عليه كمرجعيتة في العصر الحاضر، يقول الكاتب الحداثي محمد حمزة: (تقتضي التأويلية الحديثة ضرورة التخلي عن فكرة التراث الناجز... إنما نفي، وتجاوز، وانفصال)¹³.

فلا يمكن تأسيس حادثة أو تحقيق تجديد مع وجود التقليد وبقاء الموروث، إذ من شروط النهضة وضرورات التحديث؛ إهدار التراث وتجاوزه، وإلا فلا حلّ لإشكالية "التراث والتجديد" وإشكالية "النهضة"، إنّ (التحرر من وطأة الماضي وقبوه هو الطريق إلى فكر إسلامي إبداعي يحقق الطموحات المشروعة التي تبتغيها الحضارة الحديثة)¹⁴.

ويرى علي سعيد أدونيس أنّ التمسك بالتراث ومنجزاته والانطلاق من مسلماته ومبادئه لا يؤدّي إلى فكر خلاقي ولا إلى تجديد حقيقي، إذ كل تجديد في رأيه يجب أن ينطلق من نقد التراث وزلزلة مسلماته، وعدم الاستمرار معه وقطع الاتصال به، بحيث نبدأ من الدرجة الصفر إذا أردنا بناء فكر عربي جديد وبناء وعي علمي حديث¹⁵.

وقد حاول المفكر فضل الرحمن الاستدراك على المفسرين في استنباطهم القرآنية، وما أنتجوه من تفاسير غير مرضية، والتي لم تكن بالمستوى المطلوب كما يزعم، داعياً إلى إحداث منهج جديد صالح لفهم القرآن، فالمفسرون حسبه قصّروا على مستوى المنهج والمعنى¹⁶، فنأدى بضرورة: (تصحيح أسلوب تفسير القرآن)¹⁷، فمن غير المنطقي أن تظل تلك التفاسير مقبولة إلى الأبد ما دام هناك إمكان وضرورة لاستحداث تفسير جديد، فالتفسير عمل متواصل لا يكلّ ولا ينتهي¹⁸.

وتشمل مقاطعة الحداثيين للموروث قطع الصلة بالتفسير النبوي كذلك، فالحدائث تقتضي ترك كل ما مضى ومن ذلك تفاسير النبي عليه الصلاة والسلام، وهم بهذا أهملوا أهم مصدر تفسيري، لعدم حجّية تفاسيره صلى الله عليه وسلم بزعمهم، فتفسيره (أمرٌ مهمّل، والتمسك بها خطأ يجب على الأمة أن تقبل نفسها منه، وأن تصحح مسارها بإلقاء السنة على كواهلها.. والنبي محضور عليه أن يُبيّن من عنده كلمة من القرآن أو يفسرها)¹⁹.

كما أهدرت القراءة الحدائثية فهم السلف وأعرضت عنه، فلم يول الحداثيون أيّ اهتمام لأقوال الصحابة والتابعين، ولم يتم اعتبارها مصدرا من مصادر التفسير²⁰، ولم تعد هناك حاجة إلى تنظيمات الصحابة والتابعين في التفسير حسب عبد المجيد الشّريفي، ولا بد من الإعراض عن تفاسيرهم، والبحث عن اجتهادٍ جديدٍ مناسب لنا، فاجتهاداتهم تصلح لظروفهم، ثم هي فهم بشرية معرضة للخطأ وغير ملزمة²¹.

رابعا: الموقف من قواعد التفسير وأصوله

ينادي الحداثيون بتهميش أصول وقواعد الاستنباط التي وضعها العلماء وسنّها المفسترون والأصوليون من السلف والخلف، فلم يعد هناك أيّ داع لأن نبقي مُرتهّنين لتلك الشروط، ولا يجب أن تبقى علاقتنا بها علاقة وصاية وتقديس، فهي قواعد ونصوص ثواب²².

فقد بات من الضروري حسبهم إبادة الضوابط المنهجية والشروط المعرفية، والتفكّلت من تلك القواعد العلمية، ولا حاجة لنا للتقيد بأيّ بشيء من تلك المبادئ التي وضعها الأوائل، بل ينبغي ممارسة القراءة وفتح باب الاجتهاد من جديد دون وساطة الأصول، ف(لكل مسلم أن يفهم عن الله من كتاب الله... بدون توسيط أحد من سلف أو خلف)²³.

لا تؤمن الحدائث بما يُسمّى شروط التفسير أو قواعد التأويل، بل الحرية الفكرية هي الأساس وهي مكفولة للقراء والمتعاملين مع القرآن، ليقرووه حسب خلفياتهم وميولاتهم الشخصية، فالقراءة (تتعدّد بتعدّد أحوال القارئ الواحد وتتعدّد ثانيا بتعدّد القراء بسبب خلفياتهم الفكرية والأيدولوجية، وتزداد درجات التعدد والتعقيد بالانتقال من مرحلة حضارية إلى مرحلة حضارية أخرى)²⁴، والقرآن (نفهمه بالضرورة من زاوية الإنسان المتغير والنسبي)²⁵.

وهذا يبعث أصول مختلفة عن الأصول الموروثة، والتي تتمثل أساسا في العقل المستنير، فليس من شروط المجتهد عندهم أن يكون له علم بالقرآن والسنة واللغة والأصول... وإنما يشترط أن يكون المرء مستنيرا عقلا نيا تقدما ثوريا²⁶.

فالمفسر لا يشترط فيه أن يكون عالما بالقواعد ومحيطا بالأصول ومحصلا للشروط، لأن التقيد بالعلم واشتراط التخصص ينفي حق الجميع في الفهم والتفسير، فالقراءة حق مشاع للجميع، إنَّ الشخص الوحيد الذي يحق له وحده أن يقوم بعملية التفسير والتأويل هو المكلف المؤمن²⁷.

وحقّي يتمكّن الحداثيون من تسهيل تجاوز قواعد الاستنباط والفهم ويتسنى لهم إزالتها، لجؤوا إلى تهميش كتب علوم القرآن وأصول التفسير وأصول الفقه، لتضمينها شروط التأويل والفهم وقواعد الاستنباط وغير ذلك مما وضعه العلماء من ضرورات لممارس التفسير. فأثمموها بالتناقض وغياب المنهجية العلمية وأثما حائل أمام التطور المعرفي: (تميّزت كتب علوم القرآن الكلاسيكية بسمات كثيرة كانت عائقا أمام تطوّر المعرفة الدينية فيها... كانت هذه الكتب حاملة للكثير من التناقض، لحرص أصحابها على الاستنساخ والنقل والعرض دون نقد، ولغياب منهج في الكتابة واضح الأركان بعيدا عن التجميع)²⁸.

وحسب الكاتب الحداثي جلال الربيعي فإننا في أمس الحاجة لقراءة نقدية لنصوصنا الحافّة بالنصوص المؤسّسة، كنصوص مؤلفات علوم القرآن لاحتوائها على الكثير من التناقض والتضارب واعتمادها على النقل والسرد دون تمحيص²⁹.

كما أثاروا حولها عدّة شبهات، كالزعم بأنّ شروط التفسير وقواعد الاستنباط هي حيلٌ وتلاعبات وضعها المتقدّمون لسجن النص القرآني في دائرة ضيقة من الفهم، واحتكار التفسير على طائفة من الناس، فعلى سبيل المثال تُعتبر قاعدة: "حمل الخاص على العام"، حسب محمد أركون حيلة وخدعة فقهية صنعها العلماء قديما، يأبى التحليل الدلالي والبنوي واللغوي الحديث أن يقبل مثلها³⁰.

ومن ذلك اعتبارهم أنّ (علم التأسخ والمنسوخ، وعلم أسباب النزول، من العلوم التي تكشف عن التلاعبات الخطيرة التي قام بها العلماء في الوقت الذي ادّعوا فيه الوفاء المطلق للقرآن)³¹.

وكنماذج للمصنّفات التراثية التي حاول الحداثيون التّيل منها وتهميشها وإثارة الشّبهات حولها نجد "الرسالة" للشّافعي، و"الإتقان في علوم القرآن" للسّيوطي، فقد نال المصنّفين الكثير من أوجه

النقد والنقض والتشكيك. تعتبر "الرسالة" الشافعي من أهم المصنفات الإسلامية على الإطلاق، وهو من أول المصادر التراثية التي أسست للأصول النظرية الاستدلالية اللازمة للفهم والاستنباط. اتهم الحداثيون الشافعي بفرض السنة النبوية كإجراء منهجي لفهم القرآن، وأنه جعلها حجة شرعية، ولولاه لما كان لها اعتبار في المرجعية الدينية التراثية، وهو بصنيعة هذا أسس للأيدولوجية الإسلامية حسب ما يزعمون. وهذا ما فعله حامد أبو زيد الذي كتب كتابه الشهير: "الإمام الشافعي وتأسيس الأيدولوجية الوسطية" متهمًا الشافعي بالدعوة إلى إيدولوجية معينة، وفرض أصول التشريع وضوابط الفهم ومنها السنة، ومعلوم أن السنة النبوية من أصول التفسير وقواعده الأساسية، فهي الأصل في التفسير، وهو ما لا يرضيه الحداثيون.

ومن غير المقبول حسب عبد الحميد الشرفي أن نبقي متمسكين بمنهج الشافعي الأصولي في فهم القرآن، لأنه يؤدي إلى مأزق منهجي، هذا ولم تعد المنهجية الأصولية للرسالة صالحة لعصرنا الزاهر، ثم إن هذا المنهج استنباطي يفتقر إلى التدقيق والترتيب المنطقي، ويحتوي على العديد من الثغرات كتغليب المنهج الفقهي في قراءة النص القرآني³².

أما كتاب "الإتقان في علوم القرآن" للسيوطي، والذي يُعد من أشهر ما ألف في علوم القرآن قديماً وحديثاً، وأوسعها مادة، وأكثرها فائدة، حيث أجاد في علوم القرآن واشتغل بمسائل غاية في الأهمية في موضوعات التفسير والمفسرين. لم يسلم هو الآخر من آلة النقد والنقض الحداثي، حيث قام محمد أركون بقراءة تفكيكية لهذا الكتاب.

وصف محمد أركون قراءته للإتقان بالقراءة العلمية التجديدية الصحيحة غير الخاضعة للأهواء، حاول فيها إثبات خطأ ترتيب أبواب الإتقان، وتبعثر مادته العلمية، واختلال توازنه، وعدم تقديمه أيّ إبداع أو تجديد، لعدم خروجه عن ذهنية التأليف الكلاسيكي التقليدي، فالسيوطي لم يقدم شيء سوى إعادة إنتاج أساليب العرض القديمة كتصنيف الآراء وتكثيف المعطيات، والزج بالمعارف التي شكّلت الممارسة الأرثوذكسية للقرآن، ثم قدّم أركون مقترحاً وهو إعادة تصنيف فصول الإتقان الثمانين، وحصرتها في ثلاثة عشر فصلاً، لكونها مقارنة أفضل من مقارنة السيوطي³³.

خامساً: دواعي ومبررات تجاوز التراث عند الحداثيين

إن الدعوة الحداثية إلى نبذ التراث التفسيري رغم شساعته وتنوّعه وقوّته العلمية، وتأسيس علم تفسير جديد ومعاصر، كانت منطلقة من عدّة أسباب ومبررات استند عليها الحداثيون المجددون،

فهم يثيرون مجموعة من القضايا والإشكالات على أساس أنها دواعي ومسوغات توجب قطع الصلة المعرفية بالماضي ونبد التراث، نحاول التعرف على أبرزها فيما يلي:

5-1: افتقار التراث التفسيري للمنهج النقدي والدقة العلمية

حكم الحداثيون على المناهج التفسيرية التراثية بعدم الدقة العلمية، وبغياب النقد السليم، وانعدام المنهج الصحيح: (إن مناهجنا التقليدية غير الدقيقة ينبغي تجاوزها)³⁴. وكثيرا ما يصف محمد أركون التراث التفسيري بأنه عبارة عن معارف تقليدية غير دقيقة³⁵، كما أننا (لا نأمل تفسيراً حديثاً بحق إلا اليوم الذي يخضع فيه فنّ التفسير للمنهج العلمي النقدي والتاريخي غير التبريري)³⁶، وهو ما لم يتوقّر إلى الآن حسب ما يروّون.

5-2: التراث سبباً للتخلف الحضاري وعائق أمام التطور الفكري

التخلف سببه ومنشأه هو الموروث الديني السائد والذي يجب على الأمة أن تضعه عن كواهلها أسوة بالغرب، ف(أكبر عائق يقف في وجه التقدم هو الثقافة الدينية)³⁷. وحلّ مشكلات الواقع المتنوعة كالانحطاط والجهل والتقهقر الحضاري، يكون بالتححرر من سلطة التصوص الدينية، أما أن ظلّ معتمداً عليها فسيؤدّي ذلك إلى تعقيد الوضع³⁸.

فتحقيق النهضة واجتثاث التخلف يبدأ ويتحقّق حين نبتعد عن التفسيرات التراثية التي سبّبت انحطاط المسلمين وتقهقرهم، وضعفهم الشديد، (إنّ من أكبر أسباب انحطاط المسلمين أنهم نبذوا القرآن وراء ظهورهم ووضعوا نصب أعينهم هذه التفسيرات)³⁹.

ولا سبيل لنا للخروج من إشكالية التخلف الحضاري إلا بالتخلص منه، يقول حسن حنفي (التراث القديم لا قيمة له في ذاته، كغاية أو وسيلة ولا يحتوي على أي عنصر من عناصر التقدم. إنه جزء من تاريخ التخلف وأحد مظاهره، والارتباط به نوع من الاغتراب)⁴⁰.

5-3: التراث احتكارٌ للقرآن واستغلال له - وهو ما يحتمّ تجاوزه -

التراث التفسيري من منظور الحداثين احتكر النص القرآني، ذلك أنّ المفسرين وضعوا مناهج وقواعد التفسير حتى يستغلوا أمر التأويل والنظر في القرآن وينفردوا به عن غيرهم، فقد مارسوا بما اشترطوه من مناهج وقواعد نوعاً من الوصاية على النص، حيث (يشعرُ القارئ بتقاصر قامته أمام هذه الشروط التي لا تتاح إلا لفئة قليلة من الناس، وهم الذين أعطاهم الله بسطةً ورسوخاً في العلم، وأسند لهم وحدهم مفاتيح الفهم لولوج باب النص)⁴¹.

فقد تمّ التّضييق على القرّاء ومنعهم من حقّهم في النظر في القرآن والذي يعتبر حسب التيار الحداثي ملكيّة مَشاعيّة، وهو ما يستدعي ثورة فكرية وحراكا ثقافيا ضدّ التراث بكلّ مناهجه وشروطه، (لأنه غصبٌ لحقّ عامّ، فالنظرُ في نصوص الدّين وإعمال الفكر فيها لفهمها، وأخذ الأحكام منها، حقّ لكل فردٍ من أفراد الأُمّة، كيفما كان، وكيفما كانت درجته في معرفة العلوم الشرعية، إنهم بذلك غاصبون لحقّ الأُمّة بوضعهم لشروط الاجتهاد وضوابطه ومسالكه، مما أدى إلى قطع الصّلة بين دراسة النصوص القرآنية وجماهير الأُمّة، وإلى تفردهم هم بأمر النّظر في أمور الشّريعة بلا منازع)⁴².

5-4: الموروثُ مسلّماتٌ وأحكام تاريخية منتهية الصّلاحية

تراث التفسير كلّهُ عبارة عن أحكام ومسلّمات واجتهادات تاريخية منتهية الصّلاحية، وكما يقول محمد أركون (إنّ التراث العربي كلّهُ، وجميع ما كُتب وألّف فيه، يدخل في إطار ما يسمى الذهنية الثقافية والفكرية الخاصّة بفترة من فترات التاريخ، هي الفترة المتوسطة، فجميع المفاهيم والمناهج والبنىات والمواقف المعتمدة في هذه الفترة التاريخية من تاريخ العقل والذهن البشري، أصبح ينتمي إلى فترة من التاريخ ألغتها الحداثة)⁴³.

وهكذا تصبح التّفسيرات العديدة مرتبطة بظروف تاريخية معينة وبفئات اجتماعية مختلفة وبأنظمة فريدة من نوعها وكلها تبقى خاضعة لحتميات خاصّة بها⁴⁴، وتصيرُ منتهية الصّلاحية، لا تصلحُ إلّا لزمناها، فقد أُلّفت (حسبما تقتضيه الظروف التاريخية ومصالح الفئات التي تتنازع التّأويل وما تسمح به الآفاق الذهنية، والأطر الثقافية والمعرفية في تلك الظروف)⁴⁵.

فما فهمه المفيسرون قديما متعلّق بظروفهم التّاريخية وحصيلته نظرتهم للنص واستنتاجهم له من خلال بيئتهم الاجتماعية والسياسية ومرجعيتهم الثقافية، ووفق قواعد معرفية تاريخية كذلك، وهذا (يعني في نهاية المطاف أنّ كلّ التّأويلات من دون استثناء منخرطة في تاريخ بشري هو تاريخ أصحابها)⁴⁶.

5-5: فتح عهد تأويلي جديد للنص القرآني

يرمي الحداثيون إلى الوصول لتفسير قرآني جديد مختلف عن التّفسير التي أنشأها المنظومة التراثية، والتي أصبحت عبئا ثقيلا أمام تحديث الفكر الإسلامي وتحريره. فلقد بات من ضروريا التأسيس (لتفسير قرآني جديد، يأخذ مكتسبات العلوم الإنسانية بعين الاعتبار، ويأشر على غير

الأسس التي التزم بها المتمسكون بهذه المنظومة التي أصبحت اليوم عبئا ثقيلا يريزح تحت كلـكه الفكر الإسلامي⁴⁷.

فالمنظومة التراثية ككل تمثل حالة مرضية، وتتسم بالجمود والتجبر الفكري، وهو ما يستدعي الوقوف ضدها وتجاوزها والانطلاق نحو القرآن الكريم فهما وقراءة وتجديدا باستثمار آليات البحث المعاصرة.

إن تأسيس عهد تفسيري جديد إنما يكون بتغيير المنظومة العلمية لعلم التفسير، باستبدال هيئة وصورة العلم السائدة والمعهودة، بمهيئة وصورة جديدة على مستوى المفاهيم والمناهج والأصول. بدم البناء الحالي لعلم التفسير وبناء هيكل جديد لعلم التفسير.

سادسا: نقد مواقف الحداثيين من تراث المفسرين

إن دعوة الحداثيين إلى التخلص من التراث التفسيري على شساعته وتنوعه وغناه وقوته العلمية، ومحاولة قطع الصلة بالقراءة التراثية، وتخطئة المفسرين واتهامهم بالجهل، وتسفيه قواعد وأصول علم التفسير، والانتقاص من التفسير النبوي والذي يعتبر حجة شرعية ملزمة، إنما هي دعاوى باطلة ومواقف خاطئة منحرفة وهي أخطاء منهجية وفكرية، وهذا باعتراف كثير من الغربيين الذين أشادوا بالمفسرين ونوهوا بمناهجهم، وتبها إلى قوة وسلامة أصول وشروط التفسير.

إن ما نادى به الحداثيون من تجديد وتحديث إنما هو في حقيقته إبدال وهدم، لا إبداع وبناء وإحياء، فهو تقليد للحداثة الغربية ونقل مقولات الاستشراق وتطبيقهما على القرآن الكريم والتراث التفسيري، ذلك أنهم (جاءوا بقراءات تقطع صلتها بالتفسير السابقة، طامعين في أن يفتحوا عهدا تفسيريا جديدا؛ ولعن سلمنا بأن هذه القراءات تتضمن عناصر من الابتكار، فلا نسلّم بأن هذا الابتكار إبداع حقيقي، لأن من شأن الإبداع الحقيقي أن يكون موصولا؛ وهذا إبداع مفصول، إذ قطع صلته بتراثه، تقليدا للغير، لا اجتهدا من الذات؛ وكل إبداع يكون هذا وصفه لا يكون إلا بدعة؛ لذا يتعين أن نبدأ بالنظر في هذه القراءات المفصلة... فنوضح أنّ هذه القراءات تمارس تقليد التطبيق الغربي لركن الإبداع، متوصلة إلى نتائج تمحو خصوصية النصّ القرآني⁴⁸.

التراث بحاجة إلى قراءة ونقد لأجل بعثه وإحيائه من جديد وإظهار ملامح الأصالة والقوة فيه، وهو ما لا نجده في المدرسة الحداثية، فاهتمام الحداثيين بتفسير المتقدمين لم يكن باعثها إعادة

الجدّة لعلم التفسير، بإحيائه وإصلاحه والمحافظة عليه وحسن توظيف، وإنما قصدوا إحداث طرح جديد ومغاير لهذا العلم، بالاعتماد على المرجعية الخارجية والمتمثلة في مناهج الفكر الغربي، وأدعاء تاريخية المناهج والتفاسير التراثية وعدم دقّتها، ف (المطلع على أقوال الحداثيين يرى بوضوح أنهم يريدون تجديد الدين عن طريق نفي المفاهيم القرآنية التي أطلقوا عليها لقب التاريخية، وإعادة بناء الأصول التشريعية، فما يريدونه ليس تجديدا، بل هو نفس للدين من أصوله وتفرغ للقرآن من محتواه ومدلوله)⁴⁹.

وقد كتب المستشرق الفرنسي "روجيه أرناuld" ردّا على مداخلة محمد أركون في إحدى الملتقيات التي جمعت بينهما، وما جاء في ردّه المطول الممنوع (ولكنني سوف أدافع ولو للحظة عن أولئك الفقهاء والعلماء والمفسرين، الذين طالما درّسهم وعاشت نصوصهم. سوف أذكّر محمد أركون بأنّ هؤلاء الفقهاء كانوا نشطين جدّا، وأنهم حرّكوا النصوص القرآنية وأنعشوها بتفاسيرهم إلى درجة أنه يصعب علينا اليوم حتى باسم العلوم الإنسانية العزيرة جدا عليك يا سيد أركون أن نجد فيها شيئا آخر جديدا غير الذي وجدوه)⁵⁰.

ويضيف "روجيه أرناuld" في ردوده على الحداثيين العرب وعلى رأسهم محمد أركون: (أيّ لكم أنّ المفسرين في العصر الكلاسيكي للإسلام -أي ما يقابل العصور الوسطى عندنا- كانوا قادرين على أن يستخرجوا من الآيات القرآنية كل ما هو مقال أو متضمن فيها تقريبا. ولهذا السبب أقول: إنّ المسلمين المحدثين الذين يستعيرون المناهج الغربية، كان أخرى بهم أن يكتفوا بمناهج أسلافهم من القدماء، فهي توصلهم بالدقة نفسها لأن يستخلصوا من الآيات القرآنية ما توصلهم إليه هذه المناهج التابعة للعلوم الإنسانية والتي يتغنى بها محمد أركون)⁵¹.

الخاتمة:

تعرفنا من خلال هذه الدراسة على مفهوم الحداثة والتي تعني القطيعة مع التراث، والثورة على الموروث، والتجاوز للماضي. والحداثة هي منهج فكري يقوم على عدة أسس ومذاهب ونظريات فلسفية وأدبية واجتماعية غربية. كما تعرفنا على موقف الحداثيين العرب من التراث التفسيري، والذي يتمثل في تجاهل الحداثيين للتراث التفسيري برّمته، والدعوة إلى إحداث قطيعة معرفية معه وتسفيهه، والمناداة بضرورة تجاوزه وإلغائه.

ولقد قامت هذه الرؤية الحداثية على مجموعة مبررات ومسوغات برّر بها الحداثيون موقفهم من التراث التفسيري، كالزعم بأنّ المناهج والقواعد والآليات التفسيرية التراثية غير دقيقة ولا تسمح بقراءة سليمة وفعّالة وحيادية للنص القرآني، ولكون الموروث التفسيري يزعمهم عبارة عن تفسير قرآني تاريخي منتهي الصلاحية، وأنّ التراث وما احتواه من قواعد وأصول ومناهج واتجاهات ومدارس مختلفة المشارب قام باحتكار النص القرآني واستغلاله وتوجيهه في اتجاه معيّن، وقراءته قراءة أحاديّة متحيزة.

ولقد سعت القراءة الحداثية من خلال موقفها هذا -الرافض للموروث والطّاعين في علم التفسير- إلى فتح عهدٍ تفسيريّ جديد وتأسيس فكر تأويلي معاصر، ببناء أصول تفسيرية وإنشاء أرضية علمية مغايرة، بمعنى بناء علم تفسير جديد يسمح بالوصول إلى مفاهيم قرآنية متطورة، بعد نفي وتجاوز المفاهيم السابقة التي وصفت بالتأريخية وغير الصحيحة.

الهوامش والإحالات:

¹ الحداثة وبعض العناصر المحدثّة في القصيدة العربية المعاصرة، عبد الله أحمد المهنا، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 3/1988، ص 27.

² المنطلقات الفكرية والعقدية لدى الحداثيين للطعن في مصادر الدين، أنس سليمان المصري، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد 42، ع 1/2015، ص 81 .

³ الحداثيون العرب وموقفهم من القرآن ظاهرة الوحي أنموذجاً، إيمان أحمد الغزاوي، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد 43 العدد 1/2016، ص 2.

⁴ التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزيّ الكلبي، تح: محمد عبد المنعم البوسي وإبراهيم عطوة عوض، مطبعة حسان، القاهرة مصر، ج 1/6.

⁵ التيسير في قواعد علم التفسير، محمد بن سليمان الكافيجي، تح: ناصر بن محمد المطرودي، دار القلم، دمشق سوريا، دار الرفاعي، الرياض المملكة العربية السعودية، ط 1/1990، ص 124.

⁶ مسألة التراث بين الطرح الأيديولوجي والمعرفي في الفكر العربي المعاصر، عباد أحمد، مجلة النقد الثقافي، ع 15 ديسمبر 2013، ص 15.

⁷ الدين وأسئلة الحداثة، عبد الجبار الرفاعي، مركز دراسات فلسفة الدين بغداد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط 1/2015، ص 150-151. بتصرف.

⁸ نقد النص، علي حرب، المركز الثقافي العربي: بيروت لبنان، الدار البيضاء المغرب، ط 2/1995، ص 15.

- ⁹ ينظر: روح الحداثة، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الرباط / بيروت، ط1/2006. ص 176.
- ¹⁰ سؤال الهوية وقضايا التراث والمنهج والدولة، عبد الرحيم خطوف، الدار المغربية للنشر والتوزيع المغرب، دار الكلمة للنشر والتوزيع، مصر، ط1/2016، ص 184. بتصرف
- ¹¹ التأويل الحداثي للتراث التقنيات والإستمدادات، إبراهيم بن عمر السكران، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض المملكة العربية السعودية، ط1/2014، ص 12.
- ¹² من القرآن إلى المصحف، جلال الربيعي، جلال الزبيعي، مكتبة علاء الدين، صفاقس تونس، ط1/2016، ص 10.
- ¹³ إسلام المجددين، محمد حمزة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1/2007، ص 65.
- ¹⁴ جدل الأصول والواقع، حمادي ذؤيب، دار المدار الإسلامي، بيروت لبنان، ط1/2009، ص 8-9، بتصرف.
- ¹⁵ ينظر: الحداثة وانتقاداتها: نقد الحداثة من منظور عربي إسلامي، محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار بوتقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، ط1/2006، ص 89.
- ¹⁶ الإسلام وضرورة التحديث، فضل الرحمان، تر: إبراهيم العريس، دار الساقبي، بيروت لبنان، ط1/1993، ص 10-11.
- ¹⁷ المصدر نفسه، ص 9-10.
- ¹⁸ ينظر: إسلام المجددين، ص 59.
- ¹⁹ نقلا عن: السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام، عماد السيد الشربيني، دار اليقين المنصورة، القاهرة مصر، ط1/2002، ج1/124-127.
- ²⁰ التبار العلماني الحداثي وموقفه من تفسير القرآن الكريم عرض ونقد، منى يحي الدين الشافعي، دار اليسر، القاهرة مصر، ط1/1429، ص 462.
- ²¹ الدين وأسئلة الحداثة، ص 140.
- ²² ينظر: جدل الأصول والواقع، ص 8.
- ²³ النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، طيب تيزيني، دار البنابيع، دمشق سورية، ط1/1997، ص 281.
- ²⁴ النص السلطة الحقيقة، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/بيروت ط1/1995 ص 11.
- ²⁵ نقد الخطاب الديني، نصر حامد أبو زيد، سينا للنشر، القاهرة مصر، ط2/1994، ص 193.
- ²⁶ الخطاب الإسلامي الواقع والتجديد، أكرم علي مسعد المدعوري، رسالة ماجستير جامعة عدن، اليمن، 2014، ص 94.
- ²⁷ الفكر الإسلامي قراءة علمية، محمد أركون، مركز الإنماء القومي، بيروت لبنان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، ط2/1996، ص 269.

- ²⁸ من القرآن إلى المصحف، ص 124
- ²⁹ ينظر: المصدر نفسه، ص 10 و 124.
- ³⁰ ينظر: الدين وأسئلة الحداثة، ص 66.
- ³¹ إسلام المجددين، ص 95. بتصرف
- ³² ينظر: لبنات، عبد المجيد الشرفي، دار الجنوب للنشر، تونس، (د ط) 1994، ص 139-143.
- ³³ ينظر: الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص 247-249-250
- ³⁴ تاريخية الفكر العربي الإسلامي، محمد أركون، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب/بيروت لبنان، ط3/1998 ص 44.
- ³⁵ المصدر نفسه، ص 44.
- ³⁶ المصدر نفسه، ص 25.
- ³⁷ الحداثيون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة والقرآن الكريم، الجيلالي مفتاح، دار النهضة للطباعة والنشر، دمشق سوريا، ط1/2006، ص 41.
- ³⁸ ينظر: النص السلطة الحقيقة، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب/بيروت لبنان، ط1/1995، ص 144.
- ³⁹ نحو فقه جديد، جمال البنا، (د دار النشر) (د ت) (د ط)، ص 322.
- ⁴⁰ التراث والتجديد، ص 29. بتصرف.
- ⁴¹ أفق التأويل في الفكر الإسلامي، محمد حمزة، دار محمد علي للنشر، تونس، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت لبنان، ط1/2011، ص 82. بتصرف.
- ⁴² تحديد علم أصول الفقه، مولود السري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2/2016، ص 63-64. بتصرف.
- ⁴³ الدين وأسئلة الحداثة، ص 27. بتصرف.
- ⁴⁴ ينظر: المصدر نفسه، 232.
- ⁴⁵ في قراءة النص الديني، عبد المجيد الشرفي وآخرون، التونسية للنشر، تونس، ط2/1990 ص 12.
- ⁴⁶ إسلام المجددين، ص 62.
- ⁴⁷ الإسلام بين الرسالة والتاريخ، ص 176.
- ⁴⁸ روح الحداثة، ص 176.
- ⁴⁹ التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم عرض ونقد، ص 119. بتصرف.
- ⁵⁰ الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، محمد أركون، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د ط) (ط ت)، ص 322.
- ⁵¹ المصدر نفسه، ص 323.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- إسلام المجددين، محمد حمزة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1/2007.
- 2- الإسلام بين الرسالة والتاريخ، عبد المجيد الشرفي، دار الطليعة للطباعة، ط2/2008، بيروت.
- 3- الإسلام وضرورة التحديث، فضل الرحمان، تر: إبراهيم العريس، دار الساقى، بيروت، ط1/1993
- 4- أفق التأويل في الفكر الإسلامي، محمد حمزة، دار محمد علي للنشر، تونس، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت لبنان، ط1/2011 .
- 5- تاريخية الفكر العربي الإسلامي، محمد أركون، تر: هاشم صالح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، بيروت لبنان، ط3/1998.
- 6- التأويل الحدائلي للتراث التقنيات والإستمدادات، إبراهيم بن عمر السكران، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض المملكة العربية السعودية، ط1/2014 .
- 7- تجديد علم أصول الفقه، مولود السريري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط2/2016.
- 8- التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، حسن حنفي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط4/1992.
- 9- التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جُزَي الكلي، تح: محمد عبد المنعم اليوسي وإبراهيم عطوة عوض، مطبعة حسان، القاهرة مصر.
- 10- التيار العلماني الحديث وموقفه من تفسير القرآن الكريم عرض ونقد، مني يحي الدين الشافعي، دار اليسر، القاهرة مصر، ط1/1429 .
- 11- التيسير في قواعد علم التفسير، محمد بن سليمان الكافيجي، تح: ناصر بن محمد المطرودي، دار القلم، دمشق سوريا، دار الرفاعي، الرياض المملكة العربية السعودية، ط1/1990.

- 12- جدل الأصول والواقع، حمادي ذؤيب، دار المدار الإسلامي، بيروت لبنان، ط1/2009 .
- 13- الحداثة وانتقاداتها: نقد الحداثة من منظور عربي إسلامي، محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار بوتقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، ط1/2006.
- 14- الحداثة وبعض العناصر المحدثة في القصيدة العربية المعاصرة، عبد الله أحمد المهنا، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع 3/1988.
- 15- الحداثيون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة والقرآن الكريم، الجيلالي مفتاح، دار النهضة للطباعة والنشر، دمشق سوريا، ط1/2006.
- 16- الحداثيون العرب وموقفهم من القرآن ظاهرة الوحي أممؤذجا، إيمان أحمد الغزاوي، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد 43 العدد1/2016.
- 17- الخطاب الإسلامي الواقع والتجديد، أكرم علي مسعد المذعوري، رسالة ماجستير جامعة عدن، اليمن، 2014 .
- 18- الدين وأسئلة الحداثة، عبد الجبار الرفاعي، مركز دراسات فلسفة الدين بغداد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1/2015.
- 19- روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الرباط المغرب، بيروت لبنان، ط1/2006 .
- 20- السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام، عماد السيد الشرييني، دار اليقين المنصورة، القاهرة مصر، ط1/2002.
- 21- سؤال الهوية وقضايا التراث والمنهج والدولة، عبد الرحيم خطوف، الدار المغربية للنشر والتوزيع المغرب، دار الكلمة للنشر والتوزيع، مصر، ط1/2016.
- 22- الفكر الإسلامي قراءة علمية، محمد أركون، تر: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت لبنان، المركز الثقافي العربي، الدار المغرب، ط2/1996.
- 23- الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، محمد أركون، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د ط) (ط ت).

- 24- في قراءة النص الديني، عبد المجيد الشرفي وآخرون، سلسلة موافقات، التونسية للنشر، تونس، ط2/1990.
- 25- لبنات، عبد المجيد الشرفي، دار الجنوب للنشر، تونس، (د ط) 1994.
- 26- مسألة التراث بين الطرح الأيديولوجي والمعرفي في الفكر العربي المعاصر، عياد أحمد، مجلة النقد الثقافي، ع1 ديسمبر 2013.
- 27- من القرآن إلى المصحف، جلال الربيعي، جلال الربيعي، مكتبة علاء الدين، صفاقس تونس، ط1/2016.
- 28- المنطلقات الفكرية والعقدية لدى الحداثيين للطعن في مصادر الدين، أنس سليمان المصري، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد42، العدد1/2015.
- 29- نحو فقه جديد، جمال البنا، (د دار النشر) (د ت) (د ط).
- 30- النص السلطة الحقيقة، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب/بيروت لبنان، ط1/1995.
- 31- النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، طيب تيزيني، دار الينابيع، دمشق سورية، ط1/1997.
- 32- نقد الخطاب الديني، نصر حامد أبو زيد، سينا للنشر، القاهرة مصر، ط2/1994.
- 33- نقد النص، علي حرب، المركز الثقافي العربي: بيروت لبنان، الدار البيضاء المغرب، ط2/1995.